الفن الحديث "المعاصر"

تطلق كلمة حديث على الفنون التي أنتجت في القرنين التاسع عشر والعشرين .. ويتميز الفن الحديث بشدة تنوعه وبعدد أساليبه إذ أنه يعكس ما في الحياة الحديث من تعقيد وصراع وبروز لشخصية الفرد– وقد تبدو الأعمال الفنية الحديثة في كثير من الأحيان غير مقبولة للرائي الذي لم يدرب على تذوق هذا النوع من الفن لأنه لا يخضع للمقاييس التقليدية والأكاديمية التي كانت تخضع له بعض الفنون القديمة.

والفن الحديث بالنسبة لإنتاجه الفني يشبه إلى حد كبير أعمال الرجل البدائي والطفل، من حيث تحررهما من الصور الذهنية المحفوظة – لأنه ينظر إلى العالم الخارجي نظرة تحليلية يمزجها بذات نفسه ويعبر بعد ذلك تعبيرًا متحررًا من كل قيد، وقد ظهرت النزعات الفنية الحديثة في الفن في أوروبا –و بخاصة في فرنسا التي كانت مصدرًا لتبلور هذه النزعات ثم انتقالها بعد ذلك إلى بلاد أخرى.

وفي أواخر القرن الثامن عشر كان الفن يتجه إلى العناية بالزخرف والفتنة والطلاوة، بحيث تبدو الأعمال الفنية ذات رونق أخاذ ولكنه رونق زائف لأنه فقد العناية الحقيقية بالتعبير الصادق. وتعرف هذه

الفترة (بالركوكو) وهو فن كان يحترم الطبقات الحاكمة ورجال البلاط، على أن الثورة الفرنسية كان لها تأثير كبير في ظهور الحركة الفنية متأثرة بالأسلوب الكلاسيكي (أسلوب التصوير في القرنين السادس عشر والسابع عشر)- وكان هذا الأسلوب يتصف بالرصانة واستقامة الخطوط ويستمد موضوعاته من التاريخ والأحداث الوطنية، وكان زعيم هذ المدرسة الفنان (دافيد) وسميت هذه المدرسة بالمدرسة الكلاسيكية الجديدة، على أن صرامة الخطوط ورصانة الألوان وانتفاء العاطفة التي التزمتها هذه المدرسة الفنية لم تجد اقبالا بعد ذلك من الفنانين الجدد الذين أرادوا أن يسجلوا أحاسيسهم الرقيقة وعواطفهم الجياشة بمظاهر الجمال في الحياة. وتزايد عدد هؤلاء الفنانين بحيث حلوا بالتدريج محل فناني المدرسة الكلاسيكية الجديدة. وكان زعيم هذه المدرسة (جيريكو) على أن هذا الاتجاه الرومانتكي تدهور على مر السنين ، وأصبح يعتمد على موضوعات تقوم على أثار عواطف الجماهر دون عناية بالقيم الفنية الأصلية وكانت هذه المدرسة تعتمد على المبالغات في تصوير المشاهد كما كانت تعتمد على الألوان الزاهية والمبالغة في الحركات وإبراز البطولة الأسطورية.

وفي حوالي منتصف القرن التاسع عشر بدأ الفنانون يحنون إلى الخروج الطبيعة بعد أن كانت جميع الأعمال الفنية تتم داخل المراسيم ، وأصبحوا يرسمون في الهواء الطلق مناظر الحقول والغابات والقرى، وكان من رواد هذا الاتجاه الفنان "تيودور روسو" الذي كان يميل إلى

التدقيق في رسم الطبيعة بحيث يرسم كل صغرة وكل شجرة وكل ورقة بحيث كانت أعماله الفنية تبدو وكأنها تسجيل للطبيعة أكثر منها عملا فنيا بهدف إلى الكشف عن جمالها الممتزج بذات الفنان وروحه، وفي أعقاب هذه المدرسة انطلقت الصحية الكبرى التي تعتبر بحق البداية الصحيحة للفن الحديث ، إذ كانت للقاعدة في فن الرسم عند الأكاديميين أن اللون شيء من ثانوي ,وأن الخط والرسم هو عماد الصورة – ولكن (مانية) المصور الفرنسي أغفل هذه القاعدة فكان يشكل عناصر الصور بمساحات من ألوان مختلفة – بحيث لم يعد للخط قيمته الأولى واعتمد هذا المصور على الأحسسات البصرية التي تعكسها ألوان الطبيعية على عين الرائي. وأصبح هم هذه المدرسة الفنية التي سميت بالمدرسة التأثيرية تسجيل ما تبصره عيونهم فعلا من حيث هو ضوء ولون ، فكانوا يعتمدون على الأصباغ والألوان الصافية الغير ممزوجة في شكل لمسات صغيرة متقاربة متأثرين في ذلك بالنظريات العلمية على الضوء التي ظهرت في ذلك العصر ومن أشر فناني هذه المدرسة "بيسارو" (١٨٣٠ – ١٩٠٣)– كلود مونية (١٨٤٠ – ١٩١٦) – بول سيزان (١٨٣٩ – ١٩٠٦) –رينوار (١٨٤١ – ١٩١٩) –وديجا (١٨٣٤ – ١٩١٧) – وجورج سيرا (١٨٥٩ – ١٨٩١) الذي عمل على تغطية اللوحة بأكملها بنقط صغيرة جدا بألوان صافية حتى أصبحت طريقته تسمى بالطريقة التنقيطية.

وجدير بالذكر أن (ديجا) وهو أكثر من فاز بالشهرة بين جماعة التأثيريين فقد كان يستخدم الألوان الزيتية وكان يضيف إليها كمية كبيرة من زيت النفط حتى تبدو وكأنها ألوان الجولتين ثم جمع بين ألوان الزيت والباستيل المياه في لوحه ثم أخيرًا استخدم ألوان الباستيل وصورة عن (الباليه) تعتبر من أعظم ما خلفه لنا من أعمال فنية.

وقد تأثر (ديجا) بالرسوم اليابانية فيما يختص باختزال الأبعاد وتقريب بعض العناصر الهامة في الصورة.

على أن (بوله سيزان) يعتبر أمام الفن الحديث ولم تظهر قيمته الفنية إلا بعد أن أمضى نحو أربعين سنة في العمل المستمر والبحث عن أساليب التعبير الناجحة، وكان في لوحاته الأولى ببالغ في استخدام اللون الأسود ولكنه عندما اتجه إلى رسم المناظر بدأت ألوانه تستنير وتزهو ثم أخذ يضيف إليها طبقات من اللطف والرقة، وقد أستطاع أن يبتى صورة باللون وليس بتجاوز الألوان فقط، ولكن بتنوع درجات حرارتها وعمقها وأن يبرز سطوح الأجسام بتنعيم الألوان.

الحركة الوحشية:

تعتبر هذه الحركة امتدادًا وتفرعا للمدرسة التأثيرية ولكنه امتداد صاخب حيث استخدمت الألوان استخداما عارما خرج على جميع التقاليد الفنية المتعارف عليها مما دعى نقاد الفن إلى إطلاق هذا الاسم عليها ومعناه (جماعة الوحوش) بسبب استخدامه العنيف للألوان وكان

(ماتبس) أبرز فناني هذه المدرسة ومن فنانيها البارزين (فان جوخ) (١٨٥٣ – ١٨٩٠) وجوجاني (١٨٤٨ – ١٩٠٣) وقد أغفل الوحشيون الارتباط بالأشكال الطبيعية وحروفها واعتمدوا على قوة الألوان واستخدموها في إبراز الظلال ويعتبر التأليف بين هذه الألوان الحادة المتنافرة والوصول بها إلى التكامل الفني هو الصفة الرئيسية لهذه الحركة وقد تأثر ماتيس (١٨٦٩ – ١٩٥٤) بدراسته للخزف الفارسي والفسيفساء الإسلامي البيزنطي والتسطيح والتبسيط الشديد في الأشكال إلى حد التجريد في بعض الأحيان.

الحركة التكعيبية:

وفي مطلع هذا القرن وصل الفن إلى مرحلة حاسمة، فبعد أن ظل الفنان آلاف السنين متشبثا بالصور المرئية اتجه الفنان إلى تحطيم الاشكال ثم اعادة بناء عناصر الصورة من هذه الأجزاء بحيث يصعب على الرائي التعرف على أصولها الطبيعية، ويعتبر (جورج براك) الذي ولد في باريس سنة ١٨٨١ زعيم هذه المدرسة ولا تقف أهمية هذه المدرسة عند هذا الحد بل تتعداه إلى أنها كانت قاعدة لظهور مدارس حديثة قامت على أساس مبادئها كالمدرسة التجريدية كما وصل تأثيرها إلى العمارة والأثاث والأواني والحلي – وأصحبت أشكالها هي الأشكال العصرية التي تهدف إلى الكشف عن الجوهر الكامل وراء المظهر الخارجي ثم اعادة تنظيمه من جديد.

ويعتبر (بيكاسو) الفنان المعاصر المشهور من زعماء هذه المدرسة، وهو من أصل أسباني نزح إلى باريس وعاش فيها، ويعتبر أشهر الفنانين المحدثين، وقد قلت عناية فناني هذه المدرسة بالألوان إلى حد بعيد فيما عدا الألوان البنية والرمادية وأصبح من الممكن رؤية الصور من أوضاع مختلفة .

ومما هو جدير بالذكر أن أسلوب (سيزان) هو الذي ألهم التكعيبيين طريقتهم الجديدة، إذ أن (سيزان) كان ينقب في الطبيعة عن أساسها العماري.

الحركة التجريدية:

ثم ظهرت حركة جديدة تهدف إلى استخلاص عناصر الشيء الموضوعي لتكون نواة لتصميم جديد لا ينطوي على أي صلة بالشكل الواقعي ، فالفنان التجريدي يرس بالألوان والأشكال المجردة دون غيرها مشبها فنه بالموسيقى معتبرا أن فن التصوير اذا انصرف عن محاكاة الطبيعة يكون أقدر على إبراز أعمال فنية ذات قيمة تشكيلية بحتة. ومن زعماء هذه المدرسة، (كاندفسكي – ١٨٦٦ – ١٩٤٤) ولد في موسكو ومات في باريس (وموندريان) وقد امتد تيار هذه المدرسة إلى ميادين العمارة والتصميم الصناعي على أساس صفاء الخطوط والاختزال الهندسي، وقد نشأت من هذا الا تجاه مدرسة في العمارة تسمى مدرسة (باوهاوس) في سنة ١٩١٩، على أساس

التوفيق بين القيم الفنية الرفيعة من ناحية وحاجات الانتاج الصناعي من ناحية أخرى.

الحركة التعبيرية:

ظهرت هذه الحركة في المانيا، وهي حركة تعتمد على انفعال الباطن مما يضفي على اللوحة احساسا ينقل إلى قلب المشاهد، وقد ظهرت بوادر هذه الحركة في أعمال :"فان جوخ" ولعل ظهور هذه المدرسة كان متأثرا بالفظائع التي أحدثتها الحرب العظمى الأولى ومن أبرز فناني هذه المدرسة (مونخ ١٨٦٣ – ١٩٤٤) وهو فنان من اسكندنافيا – "وبول كلي" السويسري (١٨٧٩ – ١٩٤٠) الذي كان يستطيع أن يعبر عن عالم الهمهمات والأشباح والشياطين والمردة، وعالم الأجواء المشحونة بالأحلام ويشبه فن "بول كلي" الفن الياباني والفنون البدائية.

الحركة السريالية :

أما الحركة السريالية ، فهي تتلخص في التعبير عن خواطر النفس في مجراها الحقيقي دون أي اعتبار للتقاليد المرعية، وعيتبر زعيم هذه المدرسة "مارك شاجال" الروسي ١٨٩٩ – و"سلفادور دالي" الأسباني ١٩٠٤ الذي يعتبر أشهر السيرياليين إلى اطلاق عنان الفكر ليملي خواطره ونزواته دون ضابط من العقل المقيد بقواعد منظمة والتقاليد الاجتماعية وهو في سبيل ذلك يستعمل الرمز أحيانا وهو الرمز الذي

نراه في الأحلام لتحقيق رغبة أو للخوف من شيء.

وواضح من هذا الحديث عن المدرسة الفنية الحديثة أن الفنان المعاصر تأثر تأثيرًا بالغا بما وصلت إليه أبحاث علم النفس من جهة وبالثورة الاجتماعية من جهة أخرى وببروز شخصية الفرد بروزا لم تصل إليه في أي عصر مضى. وقد كان للتطور الصناعي واستحداث خامات صناعية جديدة وامكانيات العالم وتطوره أيضا أثر كبير في هذه المدارس حتى عم أثرها كما سبق أن ذكرنا إلى ميادين الانتاج الفني في العمارة والفنون التطبيقية فنجد الأواني والأدوات الحديثة قد اتخذت اشكالا رقيقة تختلف كل الاختلاف عن الأشكال التقليدية ولكنها تسر العين والخاطر.

والطالب يستطيع بدراسته للفنون الحديثة والمعاصرة إلى جانب تقاليدنا الفنية الأخرى أن يجد مجالات واسعة للتعبير الفني الصادق غير متأثر بالنظريات الأكاديمية التي قد تحد من قدراته الابتكارية في خلق أشكال جديدة، لما ينتجه من أعمال فنية أو تكوينات مستمدة للصور التي يرسمها. وأن فهم الفن الحديث وفهم الأسس التي يقوم عليه من شأنه أن ييسر للطلاب التخلص من الفكرة الشائعة القديمة بأن العمل الفني لا بد أن يطابق الطبيعة في مظهرها الفوتوغرافي.